الأهرام

١٩٧٥/٢/٧

(١)

أم كلثوم
محاولة تفسيرها كظاهرة

بقلم :
أحمد بهجت

كانت اغانيها اطول اغان في العالم وان بدت للناس قصيرة مثل لحظات الحب السعيد .. وجاء صوتها سريعا وان بدا للناس طويلا مملا ..

ولقد ماتت ملايين كثيرة في عقلها وظل قلبها يدق .. صارت مثل اغانيها قلبا كبيرا يعمل او عقلا يسأل العقل ان يهجره .. ولقد كان اعلان نعي صوتها الاول وتصحيح الخبر بعد ذلك شبيها بما كان يحدث في نهاية حفلاتها .. حين تأخذ الوصلة الاخيرة ويطول التصفيق ، وتطفئ هي من المسرح وتحت ضغط مشاعر الجماهير تعاود الظهور .. ويتفرج الستار مرة اخرى ، وتظهر أم كلثوم .. تستطيل الحزن لتسأل : .. ماذا سر القاهرة التي تحمل اسم أم كلثوم ؟

سألت مع أم كلثوم شهرين ملايين فلسطيني رحلتهما الربيع الى تونس والسودان والكويت ولبنان .. حين تحب ، لتحيا حفلاتها من اجل المجهود الحربي وتتبع في ان اقترب منها طوال هذين الشهرين ، وقبل ان اعرف أم كلثوم من قرب ، كنت كالكبرى من المصريين معجبا بها .. ولم اكن اعرف سر اعجابي بها ، فقد نشأت على عادات معينة .. كان ابي مدرسا مصريا ، وكان في بيتنا الغناء لا اختلاف عليها .. مصحف كبير وسجادة صلاة ، وبكور يطل في البيت يوم الجمعة ، وجهاز راديو لا يفتح باستثناء فجر يوم القديس الاول من كل شهر .. حيث تغني أم كلثوم حفلتها

ولم اكن ارى ابي بصورته الانسانية وهو يغني او يطرب الا في الساعات القليلة التي كانت تغني فيها أم كلثوم. بعدها يعود الرجل الى صرامته .واقترنت أم كلثوم في ذهني بالحرية والتحلل من الصرامة . وحين عرفت تعاويذ الحب لم أجد احدا ألجأ اليه غير اغانيها .. كان الحب في بيتنا المحافظ مثل بقية البيوت المصرية ، شيئا تخلفه الشرطة التحريم المقدسة . ولم يكن غيرها يجرؤ ان يتكلم عن الحب او يغني له بهذه الصراحة التي يقبلها الجميع ، وكبرت اكثر وتمنيت ان اذهب الى المقهى الخافت الضوء الذي يحمل اسمها ولابد غير اغانيها مع الشراب الساخن والندى المبثوث .. وكم جلست لساعات طويلة استمع الى اغانيها مستمتعا في بدء زهرة مخمورا بين حبيبتي وأم كلثوم .. مختارا في كل مرة أم كلثوم .

وفي شبابي ، كانت أم كلثوم بالنسبة الى القاهرة لا استطيع تخيلها .. كنت اظنها منذ مولد الرجل البدائي من الشرق يراه يلمع في السماء ثم يختار الكمون بالزحف ليجلو على الارض مثلها بالخضوع التشهي والاعجاب المروع ..

ثم جاءت فرصتي في الاغتراب بعد طوال السنين كنت في رحلاتنا الاربع وحنيناتي الى هذه القاهرة ان اعرف لماذا يحبها الناس كل هذا الحب .. ولماذا يتخصص هذا التمثل الموضوع العاطفة الوحيد ان أم كلثوم ام تعد مجرد اغنية حديثة الحب ، انها صارت ظاهرة قومية .. ولقد ورثت كثيرا ايام التسعينيات التي اطلقت عليها .. كوكب الشرق .. ان التسمية توحي بان الناس لم تعد تحتفل كالسابق .. انها صارت تعتبرها عنصرا من العناصر الطبيعية . فيها كالارض او القمر او الزهرة .. كوكب يشرق بالشرق .. والاصل ان اطلاق هذه التسميات تسييم الى الطيور المغردة فطول هذه التسميات ان قائلها يعني مثل البلبل الابيض ، او العندليب الاسمر ، لكننا لا نعرف احدا اطلق عليه وصف الكوكب غير أم كلثوم .. وهذا يؤكد اعتبارها ظاهرة في المحيط الاول . ولهذا كله اسبابه العديدة التي تعود لبداياتها واستمرارها ومدرستها الفنية .

ولدت أم كلثوم في نهاية القرن التاسع عشر .. قبل ان يولد القرن العشرين بثلاثين التين [سنة ١٨٩٨] ، وعاشت سنة ١٩٧٥ .. اي انها عاشت ثلاثة ارباع من ٧٧ عاما .. ولقد قيل نقلا عنها في حديث صحفي انها بدأت الغناء في الخامسة من عمرها ، كما عرف انها جاءت الى القاهرة سنة ١٩٢١ .. وأن استماعها بدأ الغناء بشكل منظم بعد مجيئها الى القاهرة بأربعة اعوام .. فمعنى هذا انها تغني منذ ٥٠ عاما كاملة .. ونصف قرن من الغناء المستمر هو في حد ذاته ظاهرة تستحق الدراسة .. كانت ملكة الغناء العربي بلا منازع على العرش . وملكت في قمة مجدها الفني رغم كل شيء ، واحبتها بعقل المحب مختارا على قائمة الفنانين .. واحبتها بكبر الموت سببا في زيادة تألقه واشتداد سحره ونعتقد ان موت أم كلثوم لن ينقص من فنها شيئا ، على العكس ، سيجعلها فنها اعواما طويلة ، وسيجعلك له محبوبة الحب المعتل .. سيضفي الزمن عليه مزيدا من السحر كل يوم ، ومع اختفاء شخصها من الحياة الانسانية ، لن يبقى امام المحبين ان يسألوها استفتاءاتهم مثل ماذا تأكل او ماذا تشرب او اي الوان تفضل ، سيخلو الميدان للنقاد لتحليلها كظاهرة .. وسيخلو الميدان لدارسي الفن لتحليل فنها والعثور على سر تكوينه وبقاء مذاقه .. وسيزيد هذا من فنها ، ومن نسج الاسطورة حولها .

حين ولدت أم كلثوم .. كان جده الحلواني وحيد عثمان وميثان سنواتها الاخيرة ، مات عبده الحلواني سنة ١٩٠١ وأم كلثوم في الثالثة من عمرها، ومات محمد عثمان قبل عبده الحلواني بعام واحد ، وكانت أم كلثوم في الثانية من عمرها ، وكان عبده الحلواني مبلغا للغناء كما كان محمد عثمان مبلغا في القاهرة .. وحين بدأت أم كلثوم الغناء في الخامسة من عمرها كان جو الحياة المصرية شبيها بما احاطه طفلان العالمان من دور في الغناء والألحان .. كان عبده الحلواني صاحب صوت مبكرة في الاداء وكان يأخذ المدرسة الشرقية التي انتمت اليها أم كلثوم فيما بعد ..

وكان الاصل في الغناء القديم هو الانشاد الديني ، ولقد كانت مصر لهذا وعرف هذا الحس الفني ويأبى الا ان يصبغ كل شيء بالطابع الفني ، وهكذا تحول حب الناس للاسلام الى حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبدلا من عشق بقعة مثل البكاء الذاهبين حتى الى البيت كما يحدث في العراق ، اختصر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

١٩٧٥/٢/٧

المصريون اسلوبا وسطا للتعبير عن نغمهم وكان هذا الاسلوب هو الغناء .. وحول شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، وحول الاشخاص احل بيته وحفدته الكرام نسج عبقري من الاناشيد والاغاني والاغاني .. وكانت المولد هي المدارس الاولى التي يدرس فيها الغناء في مصر، وهكذا شاعت الاعوام الاولى من القرن العشرين ام كلثوم وهي طفلة تشدو والدها واخاها في الموالد والاذكار .. تستمع للغناء والانشاد وترى الالاتية والقوازي، وتراقب هذا كله فتحبها الاشياء وتذكر الاشياء .. وفي هذه الموالد كان من الطبيعي ان يحاول اصحاب المزاهر والاصوات تقليد عبده الحامولي .وهكذا

تعرفت ام كلثوم بعبده الحامولي واستمعت الى الحان محمد عثمان .. وان كانت صورة هذا كله تصل الينا مضطربة مهتزة ، الا انها بفكاكها الذي سوف تمسك بأصول المدرسة الشرقية في الغناء .. وتتلخص خصائص هذه المدرسة في امرين .

الامر الاول : اعتبار الموسيقى هي الغناء ، بمعنى ان الحنجرة هي الاساس في التعبير الموسيقي ، بينما الآلة الموسيقية تلعب دور التابع لدور الحنجرة وتجيء بعد صوت المغني ، ويمتاز المطرب عن غيره في هذه المدرسة بمدى قدرته على اداء الحركات اللحنية الصعبة ، ومدى قدرته على المطل والقفل وانهاء الجمل الموسيقية .

الامر الثاني : موهبة ارتجال الالحان ذلك ان خصائص المدرسة الشرقية تكمن في القدرة على الارتجال والتصرف .. بمعنى ان يبتكر المغني خلال غنائه انغاما من وحي لحظة الغناء ، تبعد وتزيد في الجملة كل مرة بشكل لحني مختلف ، ولهذا الارتجال تظهر في الموال او الاغنية ..

رأت ام كلثوم هذا كله واعجبت من هذا كله ، واعانها حفظها للقرآن على اداء الاشعار والاغاني بغير ما خطأ .

تلقفتها الاولى اذن كانت تلقائية عبقرية فنية ، وميلادها في بيئة فقيرة في الريف انقذها من التعرض لاغاني القصور او موسيقى الطبقة الحاكمة ، وكانت الاغاني التركية وموسيقى الجواري الراقصات هي الطابع الغالب على القصور ..

وجاءت الى مصر ....

وعبر في الريف تعلن القاهرة ..

بدأت حياتها الفنية وسط تألق الاسماء العربية في العشرينيات ، وعاشت في القاهرة في السبعينيات .. مخلفة وراءها ثروة من الاغاني والقصائد الكثير بلحن. فاركة في قلوب ملايين القلوب جرحا يشبه جرح محشوق هجر .

وكان بداية ام كلثوم كمغنية .. ثم تحولت الى ظاهرة فنية ، ثم صارت ظاهرة عالمية .. اما كونها ظاهرة فنية فيرجع السر فيه لاكثر من سبب .. ان اسلوبها في الابداع الفني كان مختبرا لعديد من النقاد . والابداع الفني ليس صوتا عبقريا فحسب انما هو عملية موهبة متعددة الجوانب موصولة العطاء . قال الشيخ زكريا احمد ان الجملة الموسيقية بأداء الملحن تكون عادة افضل منها بأداء المغني او المغنية ، لان الملحن هو خالق الجملة ، بالنسبة لام كلثوم كان هذا القانون الفني ينكسر .. ان ادامها للجملة الموسيقية يكون افضل من ادائه انها تجهد الملحن اولا لمعرفة مواطن القوة في صوتها ، والتحداه بموهبتها ان يلهم اليها اصعب الالحان ، ثم تؤدي هذا اللحن بصوتها الذكي اداء مميزا له لشخصيته ، وهي تغني من اجلها للمعنى على الاداء ، وتلون هذا الاداء بحيث تخرج عذابا وحبا في كل مرة تغني فيها عن الحب ، أو نقاء وصفاء في كل مرة تغني فيها عن الحب الالهي.. واذن فقد كان صوتها العبقري وأداؤها الذكي اول درجتين في صعود نجمها كظاهرة فنية ..

السبب الثاني نظرة الشرق الى الحب.

ان الشرق ينظر الى الحب نظرته للشيء محرم .. في نفس الوقت الذي تميل فيه الملايين الى الحب ، في نفس الوقت الذي يمارس فيه الآلاف تجارب الحب .. وهذا التناقض بين الفعل والفكر يخلق منه ان تغني لنا ام كلثوم ساعات من الحب .. هذا التعويض عن مشاعرنا الخاصة لابد ان يلقى صداه في نفوسنا . وعندما تغني يشبع الانسان وسط اعظم تكريمه مطربة ورقة ، ومن هنا النوع تغني ام كلثوم ، عندما تغني تصبح مغنية الحب في الحياة ، واحيانا يتوقف الزمن ،يغيب المكان ولايبقى غير اللحن والكلمة ،حتى اللحن والكلمة يتبددان ولايبقى غير نغمة الحب الخالصة للمستمع .. لايبقى غير حبه هو ، وتكريمه هو ، واحلامه هو ، وعذابه هو .. عذابا في الالحان،منظورا اليه من وجهة نظر ام كلثوم،وهكذا يتحول الحب الى شهيد ، وتصير له الاغاني عن حلمه ، وتغني قصص حبه من شوائب الحياة وكدرها ..

كانت هذه هي ميزة ام كلثوم الاولى.

الميزة الثانية لام كلثوم هو ارتباطها بالفكرة العربية واللغة العربية ، انهما نشيد مشترك بذكر الناس حروبهم ،هي شيء مشترك بين العرب جميعا ولااختلاف عليه ، ان الاذن العربية تستريح همسا كان صاحبها مائلا الى التطريب ، وتزيد ام كلثوم على التطريب بالتعبير ..وبذلك ترضي الاذواق على اختلاف الوانها ..

الميزة الثالثة ان ام كلثوم حافظت لفترة طويلة على صوت الحب والمحسنا كذا في الغناء العربي القديم .. وهو غناء يستمد اصوله من العصر الجاهلي حين كانت النساء والرجال من قبيلة بني عذرة يهلكون بسبب الحب .. سأل شاعر من بني عذرة: مايال قلوبكم قلوب كبا بقلوب المتيم .. قال : انا لننظر الى محاجر اعين لا تنظرون اليها ولا تروناها، لا بأس اذن ان يقلوب العاشق هما في محبوبه .. بل يعاتب على الحب اذا اعطى لنفسه مكانة امام حبه ، واجبه ان يظل دائما هو المتفاني المستعطف.. هذا الطابع الوجداني في صورة الحب

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

١٩٧٥/٢/٧

كان امرا واضحا في غناء أم كلثوم ، ومثلما حافظت على هذا الطابع باختيار مؤلفي اغانيها ، حافظت على طابع الاغنية الشرقية والاغنية الشرقية طابع يقوم على ابراز مشاعر الارتحال الفني او التصرف والاعلاء مع تصرف .. وهذا ما امتازت به الفنانة أم كلثوم وحدها .. وذلك شيء يغبطنا عليه الموسيقيون في الغرب ، ان الموسيقى الشرقية تتسم بالفقر والميكانيكية لعدة اسباب .. منها انهم خرجوا على الاصول القديمة التي تعتمد على التطور في الميلودية مع شيوع التشتم والمقامات وابتكار الايقاعات ، وجنحوا الى توافق الاصوات او البوليفونية التي تتم الآن بكل امكانياتها استنفدت كل امكانياتها النظرية ولم تعد تحمل شيئا سوى تكرار نفسه .. نحن في الشرق فقد يغبطنا امكانيات التصرف والارتجال الفني ، ولقد كانت أم كلثوم سيدة اولى في هذه المدرسة ، والتصرف الفني والارتجال ليس من انتاج المغني وحده فحسب ، انما هو من انتاج المغني والمستمع في آن واحد .. ان التجاوب الروحي الذي يوجد بين المغني والمستمع هو نفسه التجاوب الحسي الذي يتأتى في الطبيعة بين الصوت والصدى الذي حوله من اوتار .. ولقد كانت أم كلثوم تملك الحس الاخير لطابع الاغنية الشرقية كانت تزيد من ابتكاراتها في اللحن ، وتمزج الكلمة بالنغم بالاحه الجمهور فلا يعود يمكننا ان نعرف اين ينتهي المغنون ويبدأ الجمهور ، ولا من اين ينتهي السحر ولا من هو المسحور .. ولقد استغرقت أم كلثوم فترة طويلة حتى اكتشفت نفسها كظاهرة فنية ثم غيرتها الى سيدة لها ظاهرة صلبة .

ظلت تغني من الحب حتى ارتبطت في اذهان الناس بالحب ..

غنت للامل والصحراء والنيل ووقفت على الاطلال تكريما لصحراء الصبر الجاهلي ، وقدم اصالتنا العربية ، وبجانبة لهذه العلاقة القديمة مع حزن اطلالنا الخاصة ، غنت لعشاق يؤمنون انه : بالحبوبي كل شيء بالفداء ، لا ظل ظالنا فان الحظ فداء .. وهذا هو جنبا مثل همسة المحبب وعطفه القدري ورضاه بالقضاء والقدر ، ايضا غنت أم كلثوم لمقاومة العزيمة .. كانت عزيمة الامام الصابح والصابرين من مسافة الم طائل .. وتحركت أم كلثوم ، كانت تغني في قلب سنين الاقاليم المهددة بالحرب ، وكانت كلماتها عن الحب تكتسب مزيدا من الكبرياء والحزن ، كما كانت كلماتها عن الوطن جريئة وشجاعة ثم سافرت خارج مصر واقامت حفلاتها التي ذهب دخلها للمجهود الحربي ولم تغن بأجر منذ سنة ٦٧ الى ان ماتت .. واحسن الناس انهم يحبون أم كلثوم لشيء اكثر من الغناء.

وبعد أن كانت أم كلثوم طريق الحب وخطوة الحب .. بعد أن كانت ضعف العاشق ووجد المهجور .. صارت بين الرموز رمزا بسيطا لقدرة الشخصية المصرية على العطاء والتوهج حتى اللحظات الاخيرة . ■

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية